سقط سهوا
إبراهيم المحلاوي
www.hotamr.com

سقط سهوا

إبراهيم المحلاوى

رواية

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المؤلف :

ابراهيم المحلاوي

مصمم الغلاف :

عمرو الشامي

مراجع اللغوي :

عبد الرحمن والي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إن الحزن يدوم إلى الأبد ...

فان غوخ

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

-(٠)-

طفل بديل ... هكذا ولدت، ولو كنت أعرف أنى سأكون بديلا ... لو كنت أعرف ذلك لرفضت ... لرفضت ذلك بشدة، وأقمت الثورات، ورفعت راية العصيان.

ولدت بعد سنة واحدة من اليوم الذى ولدت فيه أمى طفلا ميتا، كانت قد اختارت له اسم فاروق لكنه مات قبل أن يصرخ، قبل أن يستنشق غبار العالم الخارجى، رفض رائحة العالم التى دنست كل شىء.

كم تعجبنى شجاعة أخى الذى رفض أن يكون عبدا لحياة تصلبه على ظهرها، وقدر أن يتحكم فى مصيره ... كم تمنيت أن أفعل مثله.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– (١) –

الشعور بالقلق ها هـو يعود من جديد عندما أستيقظ .. القلق .. شعور يتولد من أفكار بعينها، صحيح أنها تنسى، لكنها تخلف وراءها قلقا غير قابل للنسيان.

جذبت علبة سجائرى الـ "ميريت" من على الكومودينو الصغير المجاور للسرير، جذبت واحدة ثم أشعلتها بعود كبريت، كنوع اعتيادى ومذاق خاص من سيجارة تشتعل بنار عود ثقاب وليس اشتعال غاز كريه الرائحة، نفثت منها نفسين ورميتها فى المطفئة مشتعلة، قمت من مرقدى أسير نحو الباب فى الضوء المتسرب من النافذة، اتجهت نحو غرفة مكتبى أشعل جهاز الكمبيوتر الذى جلست أمامه، أتذكر ما علىَّ فعله.

* * * * *

تدور الكثير من الأسئلة وتتعدد الاقتراحات التى تتطرق إلى الفن التشكيلى، ورغم ترسخ هذه الفنون فى مجالات أوروبا الثقافية منذ قرون طويلة إلا أن البحث فيها ما زال مثيرا للجدل وتثير الكثير من التساؤلات حول معطيات

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هذا الفن إلى حد يمكن القول بأن البحث فيها أكثر تعقيدا بعض الشيء من بقية الفنون الأخرى لعدة أسباب أهمها أنها إنتاج فردى حسى – مادى ويبقى كذلك.

وقد يقول قائل إن الإبداعات الأدبية تنطبق عليها هذه التسميات مثل الشعر أو المسرح أو القصة ولكن هذه الإبداعات الأدبية بالإضافة إلى كونها حالة فكرية صرفا تترجم إلى كلمات غير ملموسة يمكن أن تتحول إلى صوت يردده قائل أو قارئ وتتعدد الأصوات وتختلف القراءات وتتباين؛ رغم إن الكلمات تبقى كما كتبها مبدعها إلا إن نفس القارئ يضيف لها بُعدا حسيا جديدا أو قد يتبع الشعر لحن ويمتزج به أو قد يضمن مع أبيات أخرى فى أشعار لشعراء آخرين أو فى أدبيات مختلفة. لذا نجد هنا أن للشعر أو القصة أو المسرح لهم استخدامات تتجاوز إلى حد بعيد مدى استخدامات النتاجات التشكيلية، وكما يشترك فى بلورتها وصبها فى قوالب أخرى كالمسرح أو السينما فنانون آخرون يمارسون فنا يختلف أصلا عن مبدع تلك الأعمال الأدبية (شعر, مسرح, قصة) فى حين أن الفنون التشكيلية تترجم فقط إلى (مادة) مصنعة ملموسة ثابتة لا يمكن تحويلها بأى شكل من الأشكال إلى

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عمل فنى آخر ويبقى العمل التشكيلى الفن الوحيد الذى عند نضوجه يستخدم فيه الفنان نفس الأدوات والمعالجات والرموز الصورية التى تعكس أسلوب الرسام المصور وتصبح كعلامة واضحة تابعة للفنان.

إن المدارس الفنية التشكيلية رغم قربها من المدارس الأدبية فى الفكر أو المنحى إلا إنها تحتفظ بخصوصية متفردة تشخصها بسرعة العين المدربة. ولقد اختلفت وتعددت تلك المدارس وما زالت تجد قبولا من الجمهور على اختلاف رغباتهم وما زالت تثير جدلا فلكل مدرسة عشاقها ..

وبحث الكثير من الفلاسفة عن طبيعة الفن وكيف يجب أن يكون:

فـ هيجل يرى:

"إن بمقتضى هذه التصورات على الفن أن يحاكى الطبيعة بوجه عام ... ومن أقدم من قال بهذا هو أرسطو ... حينها حيث كان التفكير ما زال يحبو والبشرية فى أطوار نموها الأولى ... إلا إن هذا التفكير ما زال هناك من يعتقد به ويتبعه ويبرره ... ولكن هذا التعريف والتحديد للفن سيلزم الفن بأن يكون

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

شكليا فقط لا يرتبط بالذهن والفكرة كما أنه يرينا ما نعرف وما نشاهد كل يوم، وقد نفذ بكثير من الحذق والمهارة القادرتين على التقليد".

بقلم: فاروق عزام

* * * * *

بأصابع يدى اليسرى أنهيت كتابة مقالى الشهرى لمجلة الفن التشكيلى قبل أن أرسله عبر البريد الإلكترونى لينشر فى العدد القادم .. لم أذهب إلى المجلة من قبل، فكل ما يربطنى بها لا يتعدى سوي تبادل الرسائل عبر البريد الإلكترونى .. فلا أحب أن يرى أحد عيون فنان فاقد الموهبة .. لا أحب رؤية نظرة الشفقة فى عيون هؤلاء المتطفلين الذين يسألون، كيف يستطيع أن يعيش هكذا؟

أغلقت جهاز الكمبيوتر واتجهت نحو خزانة الملابس، أغير ثيابى، ثم أحضر الإفطار، وقبل ذلك كنت قد غمرت وجهى بالقليل من الماء الذى مسحته بالفوطة المعلقة بجوار حوض المياه.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

* * * * *

عندما كنت أرسم لوحة جديدة أعيش داخلها، أمتزج بها، أشعر أننا أصبحنا شيئا واحدا. لقد شرعت فى رسم العديد من اللوحات منذ سنين عديدة إلا إنى توقفت إجباريا عن ذلك، ولأنى لا أعود إلى مشاهدة لوحاتى بعد إنجازها فإنها تظهر لى مجتمعة، ولا تبدو منفصلة إلا نادرا.

وأكثر ما يضايقنى هؤلاء النقاد الذين يعرفون التفاصيل أكثر منى، يسألوننى دائما:

– لماذا عملت هذا الشىء أو ذاك؟

ولا أستطيع أن أجيب عادة، إذ يصعب علىَّ أن أتذكر ما فكرت فيه عندما رسمت لوحة منذ عشرين سنة .. وبعدما صرت واحدا منهم أصبحت مثلهم تافها، أهتم بأشياء لا علاقة لها بالفن التشكيلى.

كنت أقيم معارض للوحاتى كثيرا، يحضرها العديد من المشاهير فى الفن التشكيلى والمتذوقون بالإضافة إلي النقاد، وأذهب إلى معارض أكثر فى

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

العديد من دول العالم خاصة روما وباريس، فالدعوات تنهال علىَّ سنويا .. الكل يتمنى حضورى، يتمنى معرفة رأيى، ولا يمكننى أن أتهرب .. فلو أغمضت عينى لبدا الأمر تذوقا وهيمانا بالإبداع المنقوش على اللوحة.

الآن لا أحد يريد رأى رجل فقد موهبته، وإن كان لم يفقد بعد حس الفنان الساكن داخله .

* * * * *

الحياة .. أتعرف الحياة؟!

الحياة ممتلئة بالعزلة، والبؤس، والعذاب، والتعاسة، وتنتهى بسرعة البرق ...

لذلك لم أشعر قط بانقضاء الزمن، فهو لم يجد بالفعل بالنسبة لى، وإن كنت أبالى بالساعات باستثناء ما كان يفرض علىَّ من مواعيد ... فأنا دائما أؤمن أن الأمور سوف تتحسن كلما كبرت فى السن ... فأغرب الأمور تدور فى رأسى

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

خاصة عندما بلغت الخامسة الأربعين، وأعتقد أننى أواجه أزمة حياة، أو شيئا من هذا القبيل، لا أدرى ... أنا لا يقلقنى التقدم فى السن ... أنا لست واحدا من هـؤلاء الشخصيات.

أثار الزمن بدأت تحط علىّ، بدأ بصلع خفيف أعلى الرأس وقد انتفخ وجهى قليلا وبدأ كرش صغير يظهر علىَّ وأخذت دوائر سوداء ترتسم حول عينى، أعتقد عندما يصيب الصلع رأسى كلها ستتحسن أمور كثيرة خاصة علاقتى بـليلى فأنا لا أستطيع حتى الآن تقبل هذه الحقيقة ... أننا انفصلنا ... شىء مؤسف حقا ... أحاول دائما غربلة أجزاء من هذه العلاقة فى عقلى، لكنى وبكل أسف لا أستطيع فعل ذلك ...

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

* * * * * *

ليس هناك ما يمنع من أن نفقد بعض الأشياء إلى الأبد ...

بتر معصمى الأيمن ... كان شيئا مؤسفا أن تفقد أعز ما تملك ... يدك اليمنى وموهبتك فى آن واحد ... كان حادث سير مؤلما وأنا فى طريقى إلى مارينا للاستمتاع بعطلة الصيف الماضى ... التفْت السيارة حول نفسها وسقطت، وسقطت مع السيارة، صحوت من هذا الحلم المفزع لأهش ذبابة وقفت على أنفى فلم أجد معصمى ... واعتقدت أنه آخر شىء سوف يجود به الزمن علىّ إلا أننى كنت مخطئا.

عانيت كثيرا بتلك المعصم الصناعى التى حلت مكان معصمى الأصلى، كنت أشعر أنه شىء ليس ملكى، شىء طارئ وسرعان ما يزول إلى الأبد. لكن الأخرى هى التى زالت إلى الأبد على الرغم من التشابه الذى يجمعها بالمفقودة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كنت أتمنى حينها أن أكون ذلك الرجل الوسيم القوى الذى تحبه النساء ويغار منه الرجال، حتى يعوضنى شيئا عما فقدته.

* * * * *

بأطراف يدى اليمنى الصناعية وبمساعدة يدى اليسرى المطبقة عليها، بدأت رسم لوحتى الألف أو طفلتى الألف. فأنا أشعر أن كل لوحة أنتجها ما هى إلا قطعة منى بذلت فيها مجهودا خرافيا حتى تخرج إلى النور مثل الأطفال تماما ... تمسك يدى الصناعية بالفرشاة بينما تساعدها يدى اليسرى على الحركة بإحكام وإبداع ... فدائما هذا قدر اليد اليسرى أن تقوم بدور الرجل الثانى، فمهمتها هى تهيئة الأجواء؛ فهى تساعدك فى ربط حذائك لكن لا تربط بها، تمسك بها الورقة لكن لا تكتب بها، تقطع بها الكرة فى مبارة كرة اليد لكن لا تسدد بها، هكذا تظل طوال حياتها، أشعر كم هى مضطهدة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

دائما، حتى عندما ماتت يدى اليمنى ظلت كما هى قابعة فى رداء الرجل الثانى، فدور البطولة ليس لها، لم تخلق من أجله.

ببطء سلحفاة وتركيز طالب فى امتحان بدأت أضع الخطوط الأولى للوحة. لم أكن متعجلا حتى أعرف ماذا سوف أصنع فأنا لست واحدا من هؤلاء الذين يتعجلون معرفة جنس طفلهم القادم، إلا أننى أعرف أنه سيكون مشوها.

* * * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– (٢) –

لا أزال أشعر كما كنت أشعر وأنا ذلك الصبى النحيف الداكن الشعر الذى لم يتجاوز بعد عامه العاشر الحالم دائما بتغير الأشياء من حوله ومجادلة الآخرين والنضال من أجل أفكاره ومعتقداته.

كنت أملك مخيلة زائدة الحيوية؛ خيالا جامحا يحول أبسط الأشياء وأتفهها إلى رموز معقدة يصعب فكها، يقفز عقلى أحيانا فيدور قليلا، وأجد بعض الصعوبة فى التمييز بين الخيال والحقيقة، وبسبب هذا أخذتنى أمى إلى طبيب نفسى. ذهبنا إليه، دخلت معى، وجلست بجوارى على المقعد. كانت العيادة بمجملها فوضوية من الطراز القديم.

وقف الطبيب أمامنا وهو يحمل سيجارة بين إصبعيه وينفث منها على مهل ويستمع إلى أمى وهى تحدثه:

– كان فى حالة اكتئاب ولم يعد باستطاعته القيام بشىء، فقد الكثير من التركيز والاهتمام بالآخرين.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فهز الطبيب رأسه وهـو يحدثنى:

– لماذا أنت فى حالة اكتئاب يا فاروق؟

– .....

أحيانا عندما ينطق اسمى أشعر أنه اسم شخص آخر ... شخص لا أعرفه، ليس لى به أى علاقة.

وكزتنى أمى عندما لم أرد على الطبيب قائلة:

– أخبر الدكتور بما تعانى منه.

ألقيت برأسى إلى أسفل محدقا فى بلاط الغرفة المرسوم على شكل لوحة شطرنج بينما تولت أمى الإجابة نيابة عنى:

– إنه شىء قد قرأه ... أشياء قرأها، فهـو مغرم بالقصص والروايات، أفلام من نوعية الخيال العلمى، لقد أفسدته.

نفخ الطبيب غبار سيجارته وهز رأسه وهـو يقول:

– شىء قرأه ... ما هـو؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– العالم يتمدد .

قلتها وأنا لا تزال رأسى إلى أسفل محدقة فى الفراغ.

ثم كرر الطبيب جملتى بإمعان، وبدأت أرفع رأسى نحوه وهـو يتحدث:

– أتعرف ... إن العالم هـو كل شىء وإذا كان يتمدد فيوما ما سوف يتحطم ويكون هذا نهاية كل شىء.

أنهى كلامه، ولمحت أمى تنظر نحوى باشمئزاز.. ثم صرخت فىَّ قائلة:

– وهل هذا شأنك؟

ثم استدارت نحو الطبيب متبعة حديثها:

– لقد أهمل كل دروسه وواجباته المنزلية .. ونسى حياته كطفل.

وصدمها ردى الغير مبالى:

– وما فائدة هذا؟

فاستشاطت غضبا وهبت فىَّ وهى تلوح بكلتا يديها قائلة:

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– ما علاقة الكون بهذا؟! ... دعك من هذا الخيال وعِش على أرض الواقع، أنسيت! أنت تعيش فى مصر ... دعك من هذه الأفلام التى تسيطر على عقلك إنها خرافات، أفهمت !

أحس الطبيب بواقع الكلمات علىَّ فحاول التخفيف عنى:

– فاروق ... لن يحدث تمددا للأرض قبل بلايين السنين ولسوف نحاول الاستمتاع بينما نحن هنا.

وأنهى كلامه بابتسامة ودودة.

وحاول إفهامى أننى أبالغ فى معتقداتى إلا أننى كنت أبتسم له فهو لا يعرف شيئا عنى، فهو لم يعِش فى بيت بالقرب من السكك الحديدية، لم يستيقظ يوما على صوت الصافرة التى يصدرها القطار التى كانت تصم الآذان، لم يجلس يوما على المائدة يتناول الشوربة ويقرأ مجلة ميكى ثم يفاجأ وهو يضع الملعقة فى فمه بالبيت يهتز وتهتز معه يده فتسكب الشوربة الساخنة على ثيابه ... وإن كنت تأقلمت على هذا الوضع إلا أننى أعتقد أنه سبب عصبيتى الذائدة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كما أنه لا يعرف شيئا عن شكرت جارتنا التى كنت أحبها قديما، حب الصبا، كانت على أعتاب المراهقة، أعترف إنها أول امرأة أكتشف جسدها وأرى مفاتنها. أدمنت التلصص عليها وهى تغير ملابسها، كاشفة للحظات عن اللحم الأبيض الشهوانى لجسمها المكتنز، أحملق فيها فاغرا فمى بدهشة، كانت رؤية تحمل فى طياتها كل جاذبية الفاكهة المحرمة ورعب الخطيئة، ومعها بدأت أعرف ما هو الجنس والحب، وشرعت فى كتابة يومياتى أحكى فيها ما تفعله شكرت فى غرفة نومها إلا أننى لم أستمر فى ذلك طويلا فأحرقت ما كتبت خوفا من أن يقع فى يد أبى أو أمى.

كنت أرسمها عارية، كما كان يظهر لى إلا أننى لم أستطع بث الروح داخلها فبقت مجرد ورقة بيضاء نحت عليها تمثال لامرأة عارية.

كانت شكرت تأتى إلينا لتساعد أمى فى أعمال البيت وأحيانا كانت تجلس معى عندما تخرج أمى إلى السوق ولا يبقى أحد سوانا، كنت أتلمس جسدها بحذر وبقلب يرتجف وجسم مرتبك، أتلمس يدها وأنا أتناول منها طبق الحساء، فخذيها عندما تستلقى رأسى عليه لأنام، أردافها عندما نتقابل فى

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فوهة مطبخنا الضيق ... وان كانت لا تبالى بما أفعل وإن كنت أبالى بكل شىء.

* * * * *

أذهب إلى المدرسة كل صباح كفعل اعتيادى ليس بالجديد أن تفعل ذلك، أنزوى فى آخر الفصل، بينما تحيط بى أفعال الأغبياء من الطلاب، تبادل أوراق، نقر بالمساطر، همس لا ينقطع، مضغ لبان، وغيرها ...

جودى؛ صديقتى المسيحية المنمشة الوجه عندما تدخل أنتبه، تتغير ملامحى، لا أعرف ماذا يحدث لى عندما أراها إنه شعور غريب نادرا ما يجتاحنى، ولا أعرف كيف فعلت ذلك بينما الجميع منهمك فى متابع المعلمة؛ اندفعت نحوها وطبعت قبلة على خدها الذى اكتسى بالحمرة عندما قامت فزعة من مجلسها، وبازدراء حكت خدها وكأن من قبلها خنزير قذر.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عدت إلى مقعدى بينما معلمتى تشير إلىَّ بأن أتبعها إلى غرفة الناظر، وهناك نهرتنى على فعلتى وحمرت يدى بعصاها ولصقت فى جيب سترتى ورقة.

– لا تعود إلا ومعك ولى أمرك.

* * * * * *

عدت إلى البيت كان وجهى محتقنا والغضب يجتاح عقلى والغيظ ينبثق من عينى المحمرتين وقد غادرت كل ملامح الطيبة وجهى لأننى لم أرد على معلمتى واكتفيت بتأديبها لى ... كنت أود أن أقول لها:

– إننى لم أكن أفعل سوى التعبير عن فضول جنسى صحى.

فالكثيرون يعتقدون أن الأولاد ذوى العشرة أعوام لا تكون الفتيات جزءا من تفكيرهم، وهذا شىء خطأ ... فهم كل تفكيرهم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فُتح باب شقتنا، فطالعتنى شكرت جارتنا – هى من تفتح لى الباب – اكتفيت بالنظر إليها ثم تجاوزتها وسألتها وهى تغلق الباب:

– أين أمى؟

أغلقت الباب واستدارت نحوى قائلة:

– لقد ذهبت إلى أمر مهم ... وقالت لى بأن أبقى لأحضر لك الطعام.

هززت رأسى فى أسى.

– هيا أذهب إلى غرفتك أبدل ملابسك حتى أجهز لك الطعام.

– لا أريد.

– فاروق ... ماذا بك؟ ما الذى حدث؟

– لا شىء

– ماذا جرى؟

– وقعت فى مأزق فى المدرسة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– هل أنت بخير؟

– لا

تركتها وجلست أمام التلفاز المُضاء ولم أنتبه لما يعرض به، ارتمت شكرت بجوارى محاولة بيدها التى تربت على ظهرى أن تخفف عنى، ثم علت زراعها وطوقت رقبتى وألصقت مقدمة رأسها برأسى قائلة بصوت مغلف بالحنان:

- فاروق ... ما الذى حدث؟ تحدث لن أخبر أحدا ... لا تخف.
- .....
- ألا تثق بى؟

وضمتنى إلى صدرها الصاعد فى النمو فتناسيت ما أنا به، غمرنى حنين غير عادى واجتاحنى هوس جنسى جامح، ولما لا وهى أول مرة أتلمس صدر امرأة غير أمى. جردتها بخيالى من كل ملابسها وتمثلت لى الفتنة التى تطل من كل شىء فيها؛ أبدأ بساقيها العاريان إلى شعرها المسدل خلفها، سحبت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رأسى من على صدرها تدريجيا، ولم أشعر بما أحدثته إلا بعدما لطمت شكرت خدى بقوة بعدما طبعت قبلة على شفتيها.

أحدقت فى الأرض وجريت إلى غرفتى وأغلقت الباب، وارتميت على السرير أفكر فيما حدث وما سيحدث بعد ذلك. ظللت هكذا شارد الذهن، كنت أشعر بقلق وخوف ورهبة تأخذنى العديد من السيناريوهات التى رسمها عقلى وكانت كل نهايتها مفزعة حقا. غمرنى النوم ولم أستيقظ إلا على شىء أملس يمسح على وجهى وشىء دافئ يلتصق بجبهتى ثم يزول، كنت أعتقد إنه حلم جميل عندما هممت بفتح عينى فأصابنى شلل فى عقلى وعينى محدقة فى شكرت التى أتت لتصالحنى على ما فعلت. ما هذا؟ تصالحنى؟ كيف؟! أنا لم أفكر بذلك، كم هى إنسانة رائعة كما رسمها عقلى دائما.

– فاروق ... أنا آسفة على ما حدث، كانت يدى قوية ... أليس كذلك؟

– ماذا؟ ... أنا من يجب عليه أن يعتذر.

– لا عليك لقد انتهى الأمر ... إنها قبلة أخ لأخته الكبرى.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وابتسمت ابتسامة خلابة بان فيها صف أسنانها العاجية التى تحاكى اللؤلؤ المرصوص بعناية فائقة. إلا إننى مسحت هذه الابتسامة عندما قلت فى أسى:

– الأمر بالنسبة لك انتهى، لكن بالنسبة لى لم ينتهِ، لن أسامح نفسى أبدا، أتعرفين ماذا حدث لى فى المدرسة اليوم ... فعلت مثلما فعلت معك.

وفى نهاية اليوم التالى كسرت زراعى بعد مبارزة من جانب واحد إثر علم أبى بما أحدثته فى المدرسة. وإن كنت فى نفسى سعيدا لأنه لم يعرف ما أحدثته مع شكرت.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– (٣) –

تعود ذاكرتى إلى الوراء فتفسد كل شىء.

ما زلت أتذكر أدق التفاصيل؛ حاولت كثيرا أن أنسى هذه الذكريات لكن لا فائدة، تظل قابعة فى هارد عقلى وترفض الحذف. كم تمنيت أن يصيبها العطب.

اجتذبنى صوت أحدهم يصرخ فأفقنى من شرودى وأنا أقف على الكورنيش أتأمل نهر النيل، كان صوت غريق يستعد النيل أن يلتهمه ويأخذه إلى عالمه الساحر، إلا أن ظنى قد خاب بعد ما أنقذه شاب، كان يبدو عليه أنه سباح ماهر، عله بطل أولمبى لم نسمع عنه بعد ...

خبطت يدى بجبهتى متذكرا موعدى مع جيهان، انزلقت فى تاكسى قديم متهالك، كنت أشعر أنه ينتظر الفرصة كى ينفجر معلنا تمرده على الحياة القاسية التى يعيشها ...

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

زواجى بجيهان ها هـو يمر عليه أربعة أعوام لكن من يشاهدنا لا يعتقد ذلك؛ فنحن نلتقى مثل العشاق نذهب إلى السينما ونسير على الكورنيش ونجلس فى جنينة الأسماك، عندما نلتقى فى شقتنا نلتقى خلسة، بعيدا عن الأنظار دون أن يشعر أحد، وكأننا نسرق أوقات المتعة الجميلة لنستمتع باللذة ثم يعود كل منا إلى حياته. فهى تقيم فى شقتها الخاصة وأنا أقيم فى شقتى الخاصة والتى تصير شقة الزوجية فى بعض الأحيان.

نزلت من التاكسى مهرولا نحو بوابة السينما، كنت أعتقد أننى سأجد جيهان تنتظرنى لكن كعادة كل بنات حواء الرجال هم من ينتظرون طوال عمرهم حتى إن بعضهم يظل ينتظر طوال العمر ولا يأتى أحد، ومثل كل رجل وُضع فى مثل هذا الموقف ظللت أطالع ساعتى كل لحظة حتى شعرت بثمالة الوقت ... لاح طيفها من بعيد وكعادة كل النساء تأتى إليك وعلى وجهها ابتسامة خجلة وتسوق لك الأعذار؛ من كسر كعب الحذاء، زحمة المواصلات، وأيضا كعادة كل الرجال تستمع إليها باهتمام وفى النهاية تتقبل الأمر وكأن شيئا لم يحدث.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

جذبتها نحو بوسترات الأفلام المعلقة أمام السينما، كانت أفلام عديدة والاختيار كان صعبا إلا إننى قلت:

– سأدخل هذا.

– نعم ! لا إنه ليسرى نصر الله.

– لذلك سوف أدخل.

– لن أدخل معك، أنا فى حالة نفسية سيئة وليس عندى القدرة على المشاهدة والتركيز.

– دعك من هذا ... هيا.

– أرجوك رأسى يؤلمنى، هيا نجلس فى مكان هادئ.

– إذا لما أتيت، لا ريب أنك تمرين بعادتك الشهرية.

– أنا لا أمر بعادتى الشهرية .. ما الذي جعلك تعتقد ذلك !

– إذا هيا.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

اتجهنا نحو شباك التذاكر، كان يقف أمامنا اثنين اشتريا التذاكر ثم غادرا، ثم سألت موظف الشباك:

– هل بدأ الفيلم؟

– منذ خمس دقائق.

ضربت بيدى على زجاج الشباك:

– يا إلهى، جيهان انسى الأمر لا أستطيع الدخول.

– إنهم خمس دقائق يا فاروق !

– كلا ... لا أستطيع أن أفعل ذلك ... أنت تعرفين إننى لا أستطيع حضور فيلما فى منتصفه.

– منتصفه !!

هززت رأسى بعلامة الإيجاب وزفرت بقوة :

– سوف تفوتنا العناوين فقط.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– جيهان هل لديك الرغبة فى تناول القهوة لمدة ساعتين ثم نذهب إلى العرض التالى

– كلا، إنى راحلة.

– انطلقى، مع السلامة.

تركتنى ورحلت ... يالها من امرأة ساذجة لا تعرف أهمية تترات البداية، لا تدرك ماذا تعنى لكل فنان، ومن المفترض أن يعنى لها فهى أيضا فنانة، راقصة باليه، أرقى فنون التعبير الحركى، من يشاهد هذه العروض هم أصحاب الذوق الرفيع لكن على ما يبدو أن من يمارسها ليس من هؤلاء ...

*** * * * ***

يعاودك فى منتصف العمر اضطرابات مختلفة عن اطمئنان الأطفال، إنه أشبه بالتحرر من الاهتمام الذى يفتقر إلى مرح الصبا، إلا إنه نوع من الحرية.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بمجرد أن تغوص فى مقعدك داخل صالة العرض المظلمة حتى تسترخى عضلات الصراع من الداخل وتتحرر من بذل الجهد، من ذلك النضال الذى يفرض عليك فى منتصف العمر.

تسترخى وكأنك فى الحمام، تستلقى هناك وتستسلم وتكون مدركا أن المياه الساخنة سوف تبرد فى دقائق ...

أتذكر، عندما كنت صغيرا، كنت مولعا برؤية الأفلام فى صالة السينما، كنت أود أن أخترق قماش الشاشة البالية البيضاء كى أعيش عالم الممثلين ... إلا إننى كنت أكتم جنونى كى لا أصطدم بالجدار الذى يغطيه الشاشة.

بدأت التترات فى الهبوط ومعها بدأ عقلى فى التركيز الشديد، والتدقيق فى كل ما يظهر على الشاشة، علنى أجد فكرة جديدة أضيفها إلى لوحتى الألف.

جذب انتباهى دخول سيدة ترتدى الخمار جلست بجوارى، تبدو من ملابسها امرأة فاضلة، غير أننى غيرت رأى سريعا بمجرد أن أخرجت علبة سجائر من حقيبتها وجذبت واحدة وأشعلتها ونفثت بهدوء لتشاهد اللوحة البيضاء من خلف الغبار الذى تنفثه. تملكنى شعور غريب ...

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أود أن أضرب هذه الوقحة؛ كيف تشعل سيجارة فى قاعة السينما ولا يمنعها أحد !! كم هى سيدة وقحة !! أعتقد أنها عاهرة أتت لتصطاد فريستها لتغمرها بحنانها.

طردت هذه الأفكار التى سيطرت على عقلى وبدأت أركز فى الفيلم الذى فكرت أن أدخله مرة أخرى بسبب هذه السيدة التى أخرجتنى من تركيزى وفاتنى خمسة مشاهد دفعة واحدة، شىء محزن حقا ...

أظلمت الشاشة وظهرت لوحة سوداء كتب عليها بحروف بيضاء ... فيلم ليسرى نصر الله.

* * * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لفح وجهى هواء بارد فى الشارع المزدحم بالسيارات عندما قررت الهبوط من التاكسى وتكملة رحلة الوصول إلى البيت سيرا، كان الشارع يموج بحركة لا تنقطع، تنتشر فى جميع الاتجاهات على الرغم من أنه يوم عطلة.

أخرجت علبتى الميريت المغلقة، فتحت فتحة لسيجارتين وأخرجت واحدة حشرتها فى طرف فمى مشعلها بعود كبريت، حشرتها بين أصابع يدى اليمنى الصناعية حتى لا أرهق اليد اليسرى، اجتذبت عدة أنفاس متتالية ونفثتهم بقوة مكونا غيمة كثيفة من الدخان، ومن وراء هذه الغيمة بدى لى كل هذا؛ ورشة ميكانيكى بها الأسطى يمسك بطفل يعنفه ويعامله بقسوة ويعلمه كيف يمسك بآلة أكبر من حجمه، يدفعه على الأرض ليقع على وجهه وهو ينظر إليه بعينين ناريتين ويتمتم بشتائم موجهة إليه ولأبويه، ليرفع الطفل وجهه وينظر إليه بعيون مكسورة دامعة، شحاذون ينتشرون فى جنبات الطريق يبسطون أيديهم طلب الإحسان، صانع أحذية يجلس خلف صندوق طلائه الذى يطرق عليه بمقدمة فرشته التى يستخدمها فى إنهاء عمله، ثلاثة شبان برفقتهم فتاة يوقفهم ضابط شرطة يطلب منهم بطاقتهم الشخصية، مالت الفتاة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

على أذنه وهمست فأشار إلى الشباب بالانصراف ملوحا بيده بينما اليد الأخرى تصطحب الفتاة إلى سيارته بينما تلوح الفتاة إلى الشباب "باااى".

سمعت أحدهم يهمس خلف أذنى، فتلفت، فلم أجد أحدا، اجتذبت نفسا أخيرا من سيجارتى ثم فركتها تحت نعل حذائى، ثم أكملت المسير .

* * * * *

إن وطأة الذنب ومقياس الصدفة كبيران.

قتل أبى نفسه، كان ذلك عقب واقعة كسر يدى، كان يعانى من مرض نفسى يجعله يسير وهو نائم وكان الجميع يعلم ذلك، لكن لم يكن أحد يتوقع أن يسير على حافة السطح فتتمايل قدماه ويفقد توازنه ويسقط وهوى محطما إحدى ضلف النافذة الزجاجية المفتوحة، لم أذكر له إلا وهو مطروح أرضا والدماء تنزف من أنفه وبعض الزجاج المبعثر حوله وصرخات أمى التى ما زالت تصم أذنى.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

- (٤) -

لم تكن شقتى فى الماضى ليست سوى مكان فوضوى غير منتظم يجتاحه حبات الغبار وخلايا العنكبوت المرتسمة فى زوايا الغرف فضلا عن اللوحات المترامية فى كل مكان، أما الآن وبعد زواجى الأخير من جيهان أصبحت الشقة فاخرة بكل المقاييس مفروشة بذوق رفيع، من النافذة تتأمل المدينة بأضوائها المتلألئة التى ما زالت تتحرك فى الظلام وقد كساها جوا هادئا.

خلعت ثيابى باستثناء ملابسى الدخلية وجواربى ثم اتجهت نحو مرسمى الصغير المرتب دائما بفضلها والذى لا أزال أمارس فيه هوايتى المفقودة الآملة فى خروج الطفلة الألف إلى الحياة.

أمسكت بالفرشاة بعد ما أغطست طرفها فى اللون البرتقالى وبدأت بحذر شديد بواسطة يدى المفقودة وبمساعدة الأخرى أكمل ما توقفت عنه، انهمكت فى الرسم حتى غلبنى النعاس. لم أكن قد رسمت سوى تفاصيل بسيطة أعتقد أن اللوحة كانت فى حاجة ماسة إليها، تركت كل شىء كما هو

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

واتجهت إلى غرفة النوم بحثا عن شيء من الراحة. ومع اقترابى سمعت صوت همهمة خافت وتقلب على السرير ... كان صوت أحد يستيقظ من النوم، أيقنت أنها هى، فدخلت والنوم فى سبيله إلى الطيران من عينى فلم أعد أفكر سوى فى شيء واحد، دلفت إلى الداخل فوقفت مبتسما بعينين ينبعث منهما الرغبة، فباغتتنى جيهان قائلة وهى تضيء الأباجورة التى بجوار السرير:

– فاروق لماذا تأخرت كل هذا ؟ وأين ملابسك؟

لم أرد عليها واندلفت تحت الغطاء منحنيا عليها أقبلها برقة فأبعدتنى بيدها:

– فاروق لا أريد.

– لماذا؟

– أنت تعرف أن عندى عرضا غدا وأريد أن أكون فى كامل لياقتى البدنية.

– لن أرهقك كثيرا.

– لا .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وكأننى أستسلم للأمر الواقع على الرغم من يقينى أنها ترغب فى ذلك وسوف تستسلم لو حاولت معها مرة أخرى :

– إذن ... أكملى نومك ما زال الوقت باكرا على الفجر ... نامى.

استدرت إلى جانبى الآخر وأغمضت عينى ثم سمعت صوت جيهان منخفضا ينبعث من خلف ظهرى :

– لقد اتصلت بك طليقتك اليوم.

– ليلى.

– عندما كنت فى السينما.

– نعم ... لقد كنت مغلقا هاتفى الجوال ... ألم تقل شيئا؟

– لا ... قالت فقط أن تتصل بها.

توقف الكلام بينى وبينها وبوادر الغيرة تلوح فى الأفق، وشعرت بيدها وهى تمتد لتطفئ ضوء الأباجورة الخافت وتدفن رأسها فى المخدة، بينما فكرة الخلود إلى النوم فارقتنى تماما.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

* * * * *

ليلى ...

الحنين ... آه من هذا الحنين الذى يأتى كرياح عاصفة تقلب أوراق الماضى وتسحبك إلى عالمك الحالم. ينتابنى نوع من الحنين نحوها، إحساس عميق مقلق، ينتابنى كلما سمعت اسمها.

أحدقت فى الضوء المتسرب من النافذة بينما جيش من النمل يزحف فى رأسى من كثرة التفكير فيما تريد ليلى منى بعد خمس سنوات عجاف.

نبتت فكرة فى رأسى ... كاملة ... ناضجة ... قمت من مرقدى أتحسس طريقى فى الظلام خارجا ... مغلقا الباب خلفى بهدوء.

* * * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أسبلت جفنى ونظرت فى استرخاء إلى اللوحة التى سحبتها من تحت كتلة من اللوحات المغطاة بأوراق الجرائد ثم علقتها أمامى على الحائط ... فهب الماضى بغير سبب نبش الجرح الذى فى قلبى وتذكرت عيونها الزرقاء الواسعة مثل زرقة السماء، أنظر إلى وجهها فى اللوحة القديمة، فقد كنت أحب رسم وجه ليلى، الوجه الوحيد الذى رسمته كثيرا.

كنت أشعر وأنا أعانق اللوحة بأننى أعانقها هى، أضيف الألوان إلى اللوحة فأشعر بها تضحك خجلى بالأحمر وترقص بالأصفر وتجلس وادعة بالأخضر ومتزنة بالأزرق. دائما كنت أرسمها بما يمليه علىَّ قلبى، لكن لم يبقَ لها سوى هذه اللوحة. فقط أحتفظ بها منذ عشرين عاما.

كانت تبتسم فى اللوحة ابتسامة تجعلك لا تلتفت عنها، خصلات شعرها المتناثرة على جبهتها العريضة قد زادت من جمالها، وهناك روح تختبئ وسط اللوحة حتى تكاد تسمع بأذنيك ضحكة صافية عذبة كصوت الماء البارد المنهمر من فوهة نافورة أندلسية.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لم يكن هناك فرق يذكر بين تلك الفتاة الرقيقة العذبة التى لم تتجاوز العشرين من عمرها المنقوشة على اللوحة، وبين هذه السيدة التى تخطت الأربعين.

كانت هى بابتسامتها الحزينة الغامضة، كانت بعينها الباحثتين عن الحب، لا شىء تغير رغم مرور الأعوام، فقط قليل من الامتلاء، وخفيف الزمن كالنسيم فوق التقاطيع المتناسقة كأنه يخشى على الوجه الجميل من آثاره، ظل الحزن دفينا، يطل من العينين حزنا غامضا، حزن تغسله الابتسامة التى تسللت إلى الملامح.

كم أشتاق إليها.

*** * * * * ***

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أحلام أم كوابيس ... لا أدرى.

كانت صحراء؛ فقط مجرد صحراء جرداء ليس بها سوى زرقة السماء وصفرة الأرض، بينما كنت أنزلق فى باطن الرمال المتحركة فى انتظار النجاة.

* * * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– (٥) –

من أجمل ميزات الحشيش أن المرء يصحو دفعة واحدة أما أكبر مساوئ الكحول أن المرء يصحو بشكل متقطع.

حين رن جرس الهاتف أخرجت رأسى من تحت المخدة ليأتينى صوت ليلى الممتع دائما كما اعتدته :

– هاى فاروق ... أنا ليلى ... هل اتصلت فى وقت غير مناسب؟

لا أتذكر ماذا قلت لها؟ وكيف أنهيت المكالمة؟ إلا إننى أتذكر أنها أرادت مقابلتى فى الرابعة بعد الظهر.

انتظرت كثيرا حتى أفقت من نومى، تذكرت بعض المشاهد الخاطفة من حلم البارحة لكننى لم أهتم به. صداع يستوطن رأسى، تذكرت أننى أسرفت فى تناول الشراب البارحة. فكرت فى أن أنادى جيهان لتصنع لى فنجان قهوة إلا أننى تراجعت عن ذلك عندما تذكرت أنها مشغولة بعرضها الذى

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

سيقام الليلة وعليها التواجد هناك من الثامنة صباحا، فلا يمكن أن تظل فى البيت حتى الواحدة ظهرا.

أشعلت سيجارة ثم نهضت من مرقدى متجها نحو النافذة ورحت أتأمل البشر والسيارات والأصوات المتدفقة فى الخارج. التهمت عدة أنفاس طويلة متلاحقة ثم فركتها بطرف قدمى.

عانيت حتى عثرت على ملابس نظيفة أرتديها، أخذتها ودخلت الحمام معلقها على الشماعة المثبتة خلف الباب الذى أغلقته خلفى.

انزلقت ملابسى الداخلية من على جسدى الأبيض الممشوق رغم عوامل السن ليظهر شعر صدرى الكثيف ولأجد نفسى عاريا تحت المياه الباردة التى اعتاد عليها جسدى صيف شتاء.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كانت تقف وسط مجموعة من النساء، كنت أقف وسط مجموعة من الرجال. فى يدها اليمنى سيجارة محشورة بين أصابعها تنفث منها على مهل، أما اليد الأخرى فكانت ممسكة بكأس من النبيذ الأحمر؛ أنظر إليها، تنظر إلىّ، أتأملها، تتأملنى، تبتسم، أبتسم لها، أدعوها إلى الرقص فتوافق على الفور، تشبك يدها بيدى والأخرى على كتفى فأضع يدى الأخرى على خصرها، أغرق فى بحر عينيها، فأترك نفسى تغرق، تطوق رقبتى بذراعيها، فتنقذنى من الغرق فى متاهات عقلى، تتقارب الشفاه وأحدثها:

– ما وظيفتك؟

– أدرس حاليا الهندسة ... وأنت؟

– أنا محاسب ... محاسب متقاعد.

– فاروق ... تحدث بجدية.

– ليلى ... أنا دائما أتحدث بجدية، لكن على الرغم من سنى الصغير فأنا لا أبحث عن وظيفة جديدة.

– لكن كيف تكسب قوت يومك؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– الرسم ... أنا رسام. أبيع لوحاتى بشكل جيد. صحيح لم يلمع اسمى بعد إلا إن الجميع أشادوا بى وبموهبتى. على فكرة، يعجبنى ثوبك، يعجبنى اللون ... أفقت من نوبة شرودى فوجدت نفسى على بعد ما يقرب من مائة متر عن المطعم الذى اعتدنا واتفقنا على أن يظل يشهد لقاءاتنا.

* * * * * *

لم تكن الساعات التى مرت علىَّ حتى قابلت ليلى فى هذا المطعم الإيطالى سوى ساعات نضال بين حبى القديم لليلى وعشقى الجديد لجيهان، كنت أشعر أننى أنزلق بسرعة إلى الهاوية. إننى أفكر فيها رغم أنفى. إننى لا أستطيع منع تلك اللهفة المنبثقة من عينى نحوها عندما انضمت يدها إلى يدى تصافحنى، طالع كل منا الآخر، شعرت بالحنان والدفء يتدفقان من عينيها، وكأننا نلتقى لأول مرة :

– لى لى، أعتذر عن التأخير.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ابتسمت متأثرة بشدة كونى ناديتها باسمها المفضل لديها.

كنا نجلس إلى منضدة صغيرة متقابلين :

– لقد تركتك تنتظرينني، كان عليَّ الاطمئنان على جيهان قبل أن آتى إليك، فقد كانت بحاجة كبيرة لرؤيتى قبل عرض اليوم، لقد كانت مضطربة جدا.

– هل العرض سوف يقام اليوم؟

– هل ستذهبين؟

– أنت تعرف ... أنا كاتبة أهتم بالكتابة ولست متذوقة لفن الباليه.

– أعرف ذلك جيدا، عندما كنت ترفضين صحبتى إلى مثل هذه الحفلات، على الرغم من علمك بشغفى بها.

– لقد مر كثير على ذلك.

– خمسة أعوام، أليس كذلك؟

– نعم ...

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أتى النادل فتركت لها حرية الاختيار بالنسبة لما أود أن أتناوله :

– ما آخر أخبارك؟

– تمام الحمد لله ... روايتى الأخيرة ترجمت إلى أربع لغات، ومرشحة إلى عدة جوائز.

– مبروك ... أنتِ كاتبة رائعة، وتستحقين أكثر من ذلك.

وضع النادل أمامنا فنجانين، فنجان الشاى الأخضر لى، وفنجان القهوة لها، كما طلبت ليلى بالضبط.

– لقد انتهيت من كتابة رواية جديدة، وبخصوصها اتصلت بك.

– رائعة .. أتعرفين كم رواية كتبتى؟

– هل تهتم الكم.

– نعم .. أنا أسجل كل لوحة أرسمها فى دفترى الخاص، وأنتِ يجب أن تسجلى كل رواية وقصة ومقالة تكتبينها، حتى لا تطير من الذاكرة، إنه تاريخك.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– لا أهتم بمثل هذه الأمور.

– هل تودين رأيي؟

– نعم.

قالتها وهي تومئ برأسها ثم استطردت قائلة :

– كنت أود ... لو كنت أنت ... من يرسم الغلاف.

*** * * * * ***

ودعت ليلى ملوحا إليها بيدى عندما انطلقت بسيارتها وتركتنى فى بحر شرودى محللا حديثنا.

ولماذا الآن تريد رسمى على غلاف من مؤلفاتها، هل تذكرت فجأة أنها كانت متزوجة لرسام، أم أنه الحنين لترانى، أما زالت تحبنى، لكن لماذا تزوجت،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأنا تزوجت، كان زواجها عِنْدا ليس إلا، وإلا لما لم يدم هذا الزواج سوى شهرين؟!

غمرتنى سعادة بالغة وأنا أتوصل أن ليلى ما زالت تحبنى، وإلا لما دعتنى؟ وبدأت أنتظر بفارغ الصبر لقاءنا القادم.

لفت انتباهى البوستر الضخم المعلق أمام قاعة العرض الذى يحمل صورة رائعة لجيهان، ولفت انتباهى الحضور الكبير، دلفت إلى الداخل وجلست فى الصف الأول علي المقعد الذى تحمله تذكرتى، كان العرض على وشك البدء.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– (٦) –

– شكرا للرب، لقد انتهى العرض، كان عرضا غبيا ومملا للغاية، وهى بدرجة لا توصف كانت مخيبة للآمال.

هكذا همست سيدة أعتقد أنها مسيحية إلى زوجها، كانت تجلس بجوارى عندما هبطت الستائر. وأنا أحاول رسم ابتسامة عريضة على وجهى حتى لا تلقى جيهان نظرة علىَّ وينفضح مدى ضجرى أنا أيضا من العرض.

لم أكن أعرف ماذا أقول لها عندما دخلت عليها غرفتها إلا إنها أنهت حيرتى بقولها :

– هل أنت جاهز للرحيل.

– أجل.

– ثوانى، علىَّ إزالة المساحيق من على وجهى وسوف نذهب.

– خذى راحتك ليس لدينا شىء نستعجل من أجله.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ساد الصمت لحظات ... قطعته قائلا وأنا أقترب منها وهى جالسة أمام المرآة ممسكة بمنديل تزيل به المساحيق بينما أضع يدى على كتفها العارى :

– عزيزتى لم يكن الأمر بهذا السوء فقد فعلتى ما عليك فعله، اجتهدتى ... لم تقصرى، لذلك يجب أن نحتفل وننسى الأمر.

– لا أعتقد ذلك ... فاروق سأكون جاهزة فى غضون دقيقة لنرحل.

قطعت حديثها قائلا :

– لقد انتهى كل شىء.

– بالنسبة لك.

– لا بالنسبة لنا، نحن الاثنين.

حاولت التقليل من انفعالى وأنا أنزع يدى من على كتفها وأدورخلفها وأقول :

– عزيزتى، أنت بحاجة لتدريب كثير حتى تكونى رائعة.

– هلا توقفت عن ذلك الحديث الآن.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

دعكت طرف أنفى وحدثتها بهدوء الأب الروحى :

– لا أريد أن يراودك شعور اليائسين أمثالى، الموضوع لا يساوى صدقينى.

– حاضر ... لنكف عن هذا الحديث.

انخفضت حدة صوتى وطغى عليه طبقة من الحنان عندما قلت لها :

– حبيبتى ... لنتحدث بهدوء عما حدث.

فهبت فىَّ واقفة قائلة :

– لقد قلت لك لا أريد التحدث، أفهمت؟

لم أستطع الإحكام على أعصابى وأنا أرد عليها فاندفعت فيها كقطار فُقد السيطرة عليه :

– لا لم أفهم بعد. فليس ذنبى أن العرض كان رديئا، من المؤكد أنه ليس ذنبى أنك لم تصبحى شيئا.

– اصمت ... هذا يكفى.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– لا ... لا يكف. أنا لم أعد أصلح لملائمة دور الأخرس الذى يجب عليه أن يسمع فقط. أنت زوجتى ولى حقوق عليك، أفهمتى؟ فأنت دائما تهتمين بنفسك فقط ولا تسمعين إلا صوتك.

– لدى ما يكفينى، لقد كنت واضحة معك، لا أريد مناقشة شىء الآن.

– حاولت أنا أبدو لطيفا، لكن صبرى نفد.

– يالك من لطيف! كل الرجال على شاكلة واحدة، قذرون لهم أظافر طويلة لن يتخلصوا منها أبدا.

هكذا قالتها بسخرية وتهكم.

حاولت أن أستجمع أنفاسى وأسيطر على فمى وأجبر قدمى على الخروج من هذه الدوامة التى لن تنتهى، بعد ما صفعتها يدى الصناعية، صفعتها على خدها الأبيض، لتترك آثارها على سحنتها، لكى تذكرها دائما بى كلما تطلعت فى المرآة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

* * * * * * *

أنظر إلى أصابع يدى الصناعية نظرة كارهة لما أحدثته، وحملتها الذنب الذى اقترفته فى حق جيهان. كلما أرى أطراف أناملى أتذكر وجهها الرقيق الذى طُبع عليه بصمات أصابعى وأتسائل :

– كيف تحملت جيهان الضربة؟ هل كُسرت أسنانها وتورم وجهها؟ كم هى يد ملعونة.

خبأت يدى الصناعية داخل جيب بنطالى حتى لا يقودنى الغضب إلى التخلص منها فى أقرب صندوق قمامة فيلتقطها أحدهم فيلهو بها أو يجعلها لعبة لطفله الصغير.

أفقت من شرودى فأجد نفسى أقف أمام مطعم صينى بينما تدعونى فتاة يبدو من ملامحها أنها صينية إلى الدخول فطاوعتها ودخلت.

كان المكان بجملته صينيا صرفا فى كل شىء، من الزى الصينى القديم الذى نشاهده فى الأفلام الصينية يرتديه كل العاملين الذين يبدو من ملامحهم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أنهم صينيون، إلى رواد المطعم الذى أغلبهم من الصينيين وبعض الجنسيات المختلفة القادمين من شرق آسيا، حتى أنه خُيل لى أننى لو خرجت من المطعم سأصُدم بأن كل من بالخارج من الصين.

المطعم أنيق إلى درجة كبيرة رغم نظام فرشه العتيق فهو يحتوى على صفان من المقاعد، وست مناضد فى كل صف، وعلى كل منضدة حامل يحتوى على أوعية زجاجية للملح والتوابل والصلصة، والمكان أيضا مضاء بصورة كافية ومزدحم، تسمع المحادثات واصطكاك الأطباق فوق الحوار، وهناك رجل عجوز يجلس خلف مكتب الحساب لمحته بطرف عينى بينما تقودنى الفتاة الصينية إلى أحد المقاعد التى تشعرك أنك فى أحد موائد الرحمن فى رمضان، انصرفت بعد ما أشرت إليها إلى صنفين من الطعام فى القائمة. وما هى إلا لحظات حتى كان الطعام أمامى.

ابتسمت وهى تضع عينها فى الطبق الذى أمامها عندما شاهدتنى أعانى بتلك العصيان الخشبية. كانت امرأة تبدو من ملامحها أنها صينية إلا إننى عرفت بعد ذلك عندما اصطحبتها إلى شقتى أنها من ماليزيا وقد أتت إلى مصر

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من أجل الدراسة فى الأزهر إلا إن ضيق الحال قادها إلى أن تكون عاهرة، اكتفيت بذلك فقط عنها، أما أنا فلم أخبرها شيئا عن حياتى ولا حتى اسمى.

أدرت المفتاح فى فوهة الباب وكنت أتمنى أن تكون جيهان فى الداخل وتشاهدنى وأنا أضاجع واحدة غيرها على سريرها إلا إننى كنت على يقين أن جيهان لن تكون فى البيت بعد الذى حدث اليوم.

دلفنا إلى غرفة النوم فوقفت خجلى فى منتصفها محدقة فى بلاط الغرفة بينما وقفت على مقربة منها أخلع ثيابى وأشرت إليها بأن تخلع ثيابها فنفذت على الفور واندست تحت الغطاء وطلبت منى بلكنتها العربية المكسرة إغلاق الضوء وتشغيل مقطوعة موسيقية لموتزارت فلم أملك شيئا له فأدرت عوضا عنه بيتهوفن، ثم تبعتها تحت الغطاء.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عندما استيقظت لم تكن بجوارى. توقعت أنها سرقت نقودى مثلما يحدث دائما فى الأفلام العربية فخاب ظنى، فلم تأخذ إلا ما اتفقنا عليه وتركت الباقى. فكرت فى نوبة حب جديدة معها.

ألمح الشيش ذا الثلاث ضلف ينفتح. تدلف إلى البلكونة فتاة لم تتجاوز بعد عامها التاسع عشر تقف متأنقة بقميصها المفتوح نصف أزراره ليظهر قدر ليس بالقليل من صدرها المكتنز – أتذكر، شاهدتها مرة وهى تغير ملابسها وتتجرد من كل شىء يلامس جسدها الذى تتأمله فى المرآة فتذكرت حبى القديم لجارتى شكرت، جارة الطفولة، فأخذنى الشوق إليها وتمنيت حينها رؤيتها – أراقبها من النافذة الزجاجية، تسوى خصلات شعرها الكارى ثم تحشر سيجارة فى طرف فمها، وتنفث منها على مهل مستندة على حافة البلكونة. فكرت أن أرمى نفسى من النافذة فترانى، تأتى ملهوفة نحوى، وتطوقنى بذراعيها مدفسة رأسى فى صدرها المكتنز.

أسدلت الستائر على النافذة لكن رغم ذلك تتسرب بعض أشعة الضوء التى تنتشر فى المكان. شعرت بالجوع يجتاحنى. فتحت باب الثلاجة والتقطت بعض الساندوتشات التى تصنعها دائما جيهان وتتركها لى، وزجاجة نبيذ وقفت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أمامها حائرا فى الشراب الآن أم فيما بعد، فلا يزال أثر خمر البارحة عالق فى فمى، خطفتها حتى أنهى حيرتى وتحركت نحو السرير، جلست على طرفه أتناول الطعام الممزوج بشراب النبيذ الأحمر. تعلق بصرى بذبابة تزحف أمامى على الأرض تتحرك بين برك قطرات النبيذ الذى تساقط من فمى، أنظر إليها محملقا فى تصرفاتها غير المتزنة بعد أن غفاها السكر، لكزتها بأصبعى فطارت وتابعت بإحساس متبلد رحلة الذبابة الفاقدة للوعى حتى غابت عن نظرى.

* * * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– (٧) –

أشارت الساعة إلى الرابعة بعد الظهر عندما فتحت لى ليلى باب شقتها، كانت ترتدى بيجامة نومها التى تختبئ تحت روبها الحريرى الأحمر :

– مساء الخير.

– مساء الخير.

– لقد جئت حسب الميعاد.

– أهلا بك ... تفضل.

انطلقت أمامى فتبعتها حتى جلست داخل الأنتريه على مقعد فى زاوية الغرفة فجلست بالمقعد المجاور لها. وتبادلنا كلمات الترحيب المعتادة ثم سألتنى :

– كيف تسير الأمور؟

– بخير ... لماذا لا أرى ابنتى؟ أين ذهبت؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– إنها نائمة.

– لم أرها منذ مدة طويلة.

– ماذا تحب أن تشرب؟

– أى شىء.

– أوكيه.

انطلقت حتى دلفت داخل غرفة وما لبثت غير ثوانى حتى خرجت ومعها رزمة من الورق المدبس من طرفه ووضعته أمامى ثم توجهت إلى الدولاب المجاور للنافذة وأخرجت زجاجة من النبيذ الوردى وسألتنى :

– ثلج كما كنت تحب.

– نعم ... أمازلتى تذكرين !!

وضعت كأسين، واحدا بالصودا لها وآخرا بالثلج لى ثم جلست إلى مقعدها وقدمت كأسا إلىَّ رشفت منه ببطء ثم وضعته أمامى :

– بيتك الجديد جميل جدا، كما كنتى دائما.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– شكرا.

وكأنها تخشى فتح موضوع ما حولت دفة الحوار بسرعة البرق :

– هذه هى الرواية التى حدثتك عنها.

قالتها وهى تشير إلى رزمة الورق فالتقطتها بين يدى متأملا العنوان ... (لحظات يأس)

– العنوان جذاب. بداية جيدة.

– أتمنى رأيك فى الرواية بصراحة كما كنت دائما ... أتذكر !

– لن تزعجك آرائى.

– لا لن تزعجنى.

مدت يديها وأمسكت بكأسى ورفعته نحوى وهى تعض شفتيها السفلى بحركة خاطفة، نظراتها راغبة فى شىء ما. مددت يدى فلمست يدها، أطبقت عليه لم تفعل شيئا، لم تسحب يدها، لم تصرخ فىَ :

– أنا مشتاق إليك.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– حقا؟

– نعم.

تبادلنا القبلات بنهم، ثم أخذت بأطراف يدى اليسرى أمسح على شعرها بينما زراعيها يطوقان خصرى.

* * * * * *

غصنا فى نوبة حب. تأوهات لا تكف عنها ليلى وتفوهها بالكلمات لا ينتهى :

- نعم ! يا إلهى ! أنا أحب ذلك.
- تحبين دق مسامير الملك.
- نعم ! أنا أحب ذلك، اعطنى مسمارك يا ملكى.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

* * * * * *

استلقينا منهكين عاريين على ظهورنا بعد ممارسة المتعة التى لم تدم أكثر من ربع ساعة :

– هذا بالضبط ما كنت أحتاج إليه، العلاج الملكى كما يقولون.

– سعيدة حقا.

– نعم.

اتكأت ليلى على مرفقها وهى تنظر نحوى ثم قالت :

– دعنا ألا نفترق مرة ثانية لا أريد أن أكون بعيدة عنك.

ضممتها إلى صدرى قائلا :

– أنا سعيد جدا لأننا عدنا إلى بعض.

– وأنا أيضا.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– أين كانت هذه الرواية من زمان؟ ... وحشتينى جدا.

– .....

فُتح الباب دون سابق إنذار فارتعدنا، دخلت، نظرت إلينا وخرجت مسرعة،

فشعرت بفداحة ما فعلنا. ماذا اعتقدت الطفلة عن أبيها؟

*** * * * * * ***

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– (٨) –

تأتي بى الأفكار وتقذفنى مرة أخرى. خلعت ملابسى ووضعت عليها رزمة الورق التى أخذتها من ليلى بعد ما عدت إلى البيت مسرعا. أحسست بشىء من البرد رغم حرارة الجو. تناولت فنجان قهوة داخل مرسمى الصغير فهدأت وحدثت نفسى قائلا :

– ماذا اعتقدت الطفلة عن أبيها؟

– لا شىء.

– لكنها رأتنى عاريا مع أمها.

– أنت قلت ... أمها.

– لكن ...

– طفلة لا تعرف شيئا بعد فهى لم تتجاوز عامها الثامن ... أتذكر ذلك؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

حاولت نسيان الموضوع وبدأت أفكر فيما هـو مطلوب منى وتذكرت أهم شىء المقال الذى أكتبه لمجلة الفن التشكيلى فقررت إنهائه. بحثت عن الكتاب الذى أستعير منه بعض القطع التى أضيفها إلى مقالاتى فلم أجده، بحثت عنه فى كل مكان ولا فائدة إلا مكان واحد، أدراج مكتبى الذى لم أجلس عليه منذ زمن بعيد لعله فى أحدهم. فتشت فلم أجد شيئا لكن لفت نظرى أن درج المكتب الأخير مغلق فبحثت عن مفتاحه حتى تذكرت أننى وضعته ملاصق لظهر إحدى اللوحات.

فتحت الدرج بهدوء فهب الماضى علىَّ من حيث لا أدرى ورأيت صورا عديدة لى كنت أحتفظ بها لوقت كهذا. كانت صورا عديدة جمعتنى مع أمى وأبى وأنا طفل لم يتجاوز عامه الأول، وصورة مع أصدقاء الدراسة، وصورة لهتلر كنت قد كتبت على ظهرها "مصر فوق الجميع"، وأخرى مع مروة زميلتى فى الكلية عندما كنا فى إحدى الرحلات التابعة للجامعة.

مروة كانت رسامة بارعة، التفوق التصق بها أينما ذهبت، التفوق فى كل شىء، حتى كتابة الشعر كانت بارعة فيه. عانيت كثيرا حتى استطعت التحدث إليها. أتذكر، ظللت أكثر من عامين أفكر كيف يكون الحديث الأول

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الذى يظل فى الذاكرة ولا يمحوه الوقت، حتى أتت الفرصة فتمكنت منها وفرضت شخصيتى عليها.

ياااه ... رغم ما مر من سنين ما زلت أتذكر أول قبلة فى حياتى كانت منها؛ أخذتنى بين ذراعيها وقبلتنى، كنت أحلم بهذه اللحظة كثيرا وانتظرتها أكثر. كان اللقاء فى بيتها داخل غرفتها جلست بجوارى وأنا منهمك فى رسم لوحة الموناليزا فالتصقت بى ولفحنى زفير أنفها الدافئ، تلامست يدانا فتلاقت أعيننا وكأننى أحصل على دفعة قوية منها لكى أفعل ما أريد وأتسيد أنا الموقف، قبلت شفتيها بعنف محركا رأسى من جهة إلى أخرى بشكل شبه منتظم وخارج عن السيطرة كما يحدث فى أفلام الأبيض والأسود حتى شعرت بلسانى يلامس لسانها.

جذبنى صوت رنين الهاتف المنبعث من جيبى، كانت ليلى هى المتصلة :

– أهلا ليلى ... كيف تسير الأمور؟

– جيدة لكن ...

– ماذا؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– ابنتك ... سلاف لا تريد الذهاب إلى المدرسة غدا ... لقد أعلنت العصيان.

– لماذا؟

– لأنها تود أن تذهب معها غدا.

– أين هى؟

– فى غرفتها رافضة الحديث معى.

– لا عليكى، غدا سأكون عندك لكى أصطحبها إلى المدرسة.

– اوكيه ... لا تتأخر.

– لا تقلقى.

– باى.

– باى.

* * * * * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عزيزى الأستاذ : فاروق

أعرفك بنفسى

الاسم : جومانة محمود

السن : ٢٢

المهنة : فنانة تشكيلية مثل حضرتك

على فكرة أنت لا تعرفنى ولم نتقابل من قبل، لكن أنا أعرفك جيدا، أعرف كل شىء عنك، حتى زوجتك الفنانة جيهان أعرفها، لقد كنت فى العرض الذى أقيم مؤخرا، كان رائعا. وأعرف عنك أنك أهم فنان تشكيلى فى مصر فى الوقت الحالى. أنا متابعة كل كتاباتك فى الصحف والمجلات وعلى فكرة أنا رسمت حوالى ٢٠٠ لوحة من أعمالك، تقدر تقول عنى إننى من أشد المعجبين بحضرتك وبفنك الراقى، وبسبب ذلك :

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أتشرف بدعوة حضرتك لحضور معرضى الأول سيقام بعد أسبوع. أما المكان فهو آخر مكان أقمت فيه معرضك، وأما الميعاد فهو أيضا نفس ميعاد معرضك الأخير. آراؤك تهمنى جدا ... رجاء لا تخذلنى.

جومانة

* * * * * *

كان شىء غريب بالنسبة لى أن تأتينى رسالة عبر البريد الإلكترونى، وأى رسالة، إنها فتاة تدعى جومانة تدعونى لحضور معرضها الأول وتود حضورى، أخيرا تذكر أحد أن هناك فنانا يدعى فاروق عزام.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عزيزتى جومانة

كونى واثقة أن فاروق عزام لا يخذل أبدا معجبينه، خاصة إذا كانت الدعوة قادمة من فتاة تبحث عن المجد فى الفن التشكيلى. سأكون أول الحاضرين.

تقبلى تحياتى ...

فاروق عزام

* * * * *

أغلقت جهاز الكمبيوتر بعد ما شعرت بالنعاس وعدم القدرة على فتح عينى. اتجهت إلى غرفة نومى واندسست تحت الغطاء وقبل الغوص فى النوم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أرسلت رسالة قصيرة إلى جيهان أعتذر فيها عما حدث ثم ضبطت منبه الهاتف على السادسة صباحا.

* * * * * *

أحلام أم كوابيس؟ لم أدرى.

قطرات من الدماء تسيل من جفن ابنتى سلاف، تسقط القطرة من جفنها فتتهادى على خدها – وهى تبتسم – حتى تسقط على طرف حذائها. ويتكرر هذا كلما أنظر إليها !!

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– (٩) –

لم أكن أعرف أن الوعد سوف يتحول إلى عادة يومية.

عندما اصطحبت ابنتى سلاف إلى المدرسة ممسكا بيدها حتى الباب إلى أن سحبتها منى، كنت محاطا بأفواج من الآباء والأمهات الذين يوصلون أبناءهم إلى المدرسة ولا أعرف كيف خرج هذا الوعد من فمى عندما ناديت عليها وهى تصعد الدرج :

– سأنتظرك أمام المدرسة حتى ساعة الانصراف.

وبالفعل أوفيت بوعدى.

ظللت جالسا على أحد الدكك الخشبية المنتشرة فى المكان. كان إحساس مدفوع من تقصيرى نحوها، خاصة عندما حكت لى ونحن فى السيارة كيف كانت تشعر بالوحدة فى الحفلات المدرسية ولا تجد أحدا يذهب معها فى عطلة نهاية الأسبوع، حتى وهى تقوم بفروضها المنزلية كانت تشعر بالوحدة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فلا تجد أحدا يساعدها ويذاكر معها دروسها، فأمها ليست متفرغة لها فهى مشغولة بكتابتها وندواتها التى لا تنقطع أبدا.

– عندك حق يابنتى لقد قصرت فى حقك كثيرا.

تركت كل شىء حولى وركزت فى شىء واحد هو ابنتى وكيفية تعويضها عن سنوات الغياب عنها مع تواصل رسائلى اليومية لجيهان.

* * * * *

أبقى طوال اليوم منتظرا خروج ابنتى من المدرسة لاصطحابها إلى البيت. انتظارها أتاح لى أن أتأمل ما يدور حولى، أتأمل الناس ومشاكلهم بينما قبل ذلك كنت لا أرى – إلا فى حدود ضيقة – فرضها السريان العادى للإحداث التى نعيشها.

أقضى معها الوقت فى قراءة قصص الأطفال واللعب معها والدخول فى حوارات ومشاكسات لا تنتهى سوى ساعة سقوطها فى النوم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لقد قادتنى ابنتى إلى مفهوم جديد لمعنى الحياة وأبعادها.

* * * * *

أغلقت ليلى خلفى الباب بعد ما أودعتها بلصق قبلة على شفتيها :

- لا تنسى موعدنا ... سأنتظرك.

أومأت بابتسامة، أدرت ظهرى إليها، وقفت إمام المصعد ضاغطا على زرار الاستدعاء، لم يلبث سوى ثوانى حتى كنت فى الداخل ضاغطا على زرار الطابق الأرضى (زيرو)، يغلق باب المصعد ويهبط حتى يتوقف.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عدت إلى البيت، خلعت ملابسى باستثناء ملابسى الداخلية والجوارب كالعادة، جلست أمام شاشة الكمبيوتر أتصفح بعض المواقع الرياضية والفنية وأطالع ما وصل إلى بريدى الإلكترونى من رسائل وكأننى كنت أنتظر رسالتها :

* * * * *

عزيزى الأستاذ فاروق

كنت أود أن أذكرك بموعد معرضى، إنه فى العاشرة، والمكان أنت تعرفه جيدا.

جومانة

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عزيزتى جومانة

أتذكر موعدك جيدا وسأكون أول الحضور.

فاروق عزام

* * * * *

سيطر علىَّ فضول مغلف بالتشويق لرؤية هذه الفتاة التى تراسلنى والتى تدعونى إلى معرضها الفنى غدا. يا ترى ما شكلها؟ خشيت أن أرسم لها صورة فى ذهنى فيصدمنى الواقع.

أغلقت الجهاز واتجهت نحو مرسمى الصغير أكمل لوحتى التى ما زالت فى مرحلة النمو لعلنى أنهى على الأقل الهيكل.

ارتعش الهاتف فأعلن وصول رسالة جديدة كانت من جيهان، كانت تود مقابلتى الآن فهى على وشك الوصول إلى منزلى، ارتديت ملابسى وانطلقت.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

* * * * *

وقفت أنتظرها واضعا يدى اليسرى فى جيبى واليمنى الصناعية فى الخارج وكأننى أعلن لها أنها ليست بحاجة إلى التدفئة. اقتربت سيارة جيهان فى بطء حتى وقفت أمامى فانزلقت داخلها. ظلت السيارة واقفة. كان حديثنا صامتا تتبادله العيون ويترجمه القلب لم يكسره إلا صوتها المرهق :

– فاروق أنا ... أنا آسفة.

– جيهان لا عليك ... لم يحدث شىء.

– لقد كنت فى حالة سيئة ... لقد أسأت إلى كل من حولى وأنت أولهم، أنا بجد آسفة. فاروق لا أستطيع أن أعيش بدونك.

– وأنا أيضا. أنتِ تدركين ذلك جيدا، هيا نصعد إلى شقتنا نكمل فيها حديثنا، لقد اشتاق المكان إليكِ.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– فاروق ... إننى فى حاجة إلي أن أبتعد بعض الشىء. سأسير بعيدا. أريد العزلة.

–ألم يكفيك ما فات؟

– أريد الانتقال إلى مكان آخر.

–إلى أين؟

– أى مكان أختبئ فيه.

– عزيزتى أنتِ تعيشين فى القاهرة، إنها أشبه بالغابة، غابة هادئة وصاخبة. يستطيع الإنسان أن يختبئ فيها.

– فكرت فى هذا فعلا لكن هل هذا قرار جيد بالنسبة لى؟ فاروق أنا أبحث عن شىء غامض، شىء داخلى.

انطلقت سيارتها وأنا أتأملها لعلها المرة الأخيرة التى نلتقى فيها. صعدت إلى شقتى، جذبنى الفراش فسقطت قتيلا.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

* * * * *

ذهبت كالعادة إلى ابنتى، أوصلتها إلى المدرسة وظللت فى انتظارها حتى خرجت ثم اصطحبتها إلى البيت وقضيت معها بعض الوقت ثم تركتها بمفردها فى البيت، فأمها لم تكن موجودة فى البيت، كنت أعتقد أنها سوف تطلب منى البقاء إلى أن تعود ليلى لكن هذا الاقتراح لم يكن فى تفكيرها على الإطلاق فقد اعتادت على ذلك. ضممتها إلى صدرى ثم طبعت قبلة على خديها وخرجت محكما إغلاق باب الشقة خلفى.

* * * * * *

عدت إلى البيت، كانت الساعة تقترب من الخامسة، قضيت ثلاثة ساعات ما بين كتابة مقالى الأسبوعى لمجلة الفن، إكمال رسم اللوحة الألف، قراءة

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

جزء من رواية ليلى الجديدة ومطالعة البريد الإلكترونى الوارد ثم بعثت برسالة إلى ليلى أعتذر فيها عن موعدنا.

اتجهت بعد ذلك إلى دولاب ملابسى وأخرجت بدلة سهرتى لهذه الليلة. كانت تبدو مقرمشة والثنيات منتشرة فيها بصورة مفزعة، فردتها على الطاولة المخصصة للكى متكئا على أطراف البدلة بأطراف أصابعى واليد الأخرى ممسكة بالمكواة ضاغطة عليها بقوة وهى تروح وتجىء.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

- (١٠) -

فى تمام الساعة العاشرة كنت أمام معرض اللوحات فى موعده المحدد بعد ما هبطت من التاكسى، وتذكرت آخر معرض عرضت به لوحاتى، كان يوما رائعا، كان الحاضرون كثيرين مثل اليوم. كنت هادئا، أنيقا، أسير بخطى واثقة، اعتقد أن هذه هى الحالة التى كنت عليها.

لم يكن أحد فى استقبالى فدخلت. كان كل الحاضرين متأنقين، روائح عطورهم تختلط وثيابهم فاخرة. فأحسست برداءة ما أرتديه. لفت انتباهى تلك الفتاة التى توحى ملامحها وملابسها الأنيقة بأنها فى العشرين من العمر منهمكة فى الشرح والمناقشات مع الحضور أمام اللوحات، تمر على اللوحات واحدة واحدة تشرحها وتناقش إبداعها بسعادة بالغة.

لفت انتباهى تلك اللوحة، كانت اللوحة لفتاة تجلس على مقعد وهى ترتدى زيا كلاسيكيا يعود إلى بدايات القرن العشرين، ترتدى فستانا أبيض يصل حتى القدمين بينما تضع يديها على فخذيها، أما نظرات عينيها فكانت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تحمل تعبيرا أقرب إلى اليقين، إلى الرضا بما يحدث. ظللت واقفا أمامها شاردا أتخيل مكانها جيهان وأحيانا كانت تطفو ليلى مكانها وكأننى حائر بينهما، لكن ليلى لم تعد تلك المرأة الفاضلة التى كنت أحبها، لقد فعلت الخطيئة معى ونحن منفصلان كيف وافقت بهذه السهولة.

فرغت الفتاة مما فيه ثم دلفت إلى آخر المعرض، تقف أمام إحدى اللوحات تسوى شعرها بخجل وتضع ذراعيها متقاطعين على الجيبة التى لا تصل إلى الركبة :

– هل تعجبك اللوحة؟

لا أعرف كيف انجذبت إليها بهذه السرعة، ولا أعرف كيف وقفت خلفها وألقيت عليها سؤالى :

– فاروق ... أستاذ فاروق.

قالتها والابتسامة تكسو وجهها.

– جومانة .. أليس كذلك؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– نعم ... أهلا بك أستاذ فاروق ... لقد أسعدنى وجودك.

– أنا الأسعد ... لأنكِ منحتينى فرصة لن تعوض، لقد أعجبنى المعرض. اللوحات رائعة. أنتِ فنانة حقيقية.

– إشادة أعتز بها. هذه أول شهادة أنالها من أستاذ كبير مثلك.

– ليست إشادة إنها الحقيقة. لقد عبرتى عن أوجاع المجتمع بأسلوب راقٍ وغير مبالغ فيه.

* * * * *

انقضى الوقت بسرعة كبيرة، وهممت بالخروج، جذبت سيجارة من علبتى وأشعلتها وجذبت نفسا، وقبل أن أهم بالإشارة إلى تاكسى جاءنى صوت جومانة، عندما شاهدتنى استدارت نحوى قائلة :

– تصبح على خير.

– وأنت أيضا.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– حسنا ... إلى اللقاء.

قالتها ويداها متشابكتان أمامها وتبتسم.

فتنحنحت قائلا :

– أنتِ ترسمين بشكل جيد ... جيد جدا.

– وكذلك أنت ... أنت مثلى الأعلى.

–أترغبين بتوصيلة.

– أ .. أ.. أنت معك سيارة؟

قالتها وهى تضع سبابتها على فمها.

– كلا ... كنت سآخذ تاكسى.

– هههههه ... كلا أنا أملك سيارة، أترغب أنت فى توصيلة.

– كنت أعتقد أنك أنتِ التى تريدين توصيلة، كان منظرك يوحى بذلك.

– عندى هذه السيارة الصغيرة، إنها هناك.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قالتها وهى تشير نحو سيارة اسبيرانزا فضية اللون.

* * * * *

أنزلت الزجاج ضاغطا بسبابتى على زر هبوط الزجاج إلى أسفل، بينما انطلقت جومانة بسيارتها بهدوء :

– كان لدى سؤال، أتمانع؟

– كلا ... تفضلى.

قلتها والابتسامة تعلو الشفاه.

– لماذا لا تمتلك سيارة؟

– لدى بعض المشاكل مع القيادة.

– حقا.

– نعم ... أنا أمتلك رخصة لكن ... عندى الكثير من السرحان أثناء القيادة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– مممممممممم

– سيارتك جميلة جدا.

اندمجنا فى الحديث عن الفن التشكيلى وعن اللوحات وتطرقنا إلى الحديث عن حياة كل منا الخاصة وعرفت إنها فتاة وحيدة نشأت يتيمة اعتمدت على نفسها فى إنهاء دراستها مع بعض المساعدات من عمها الذى رفع يده عنها عقب إنهائها للمرحلة الجامعية وإلحاقها بوظيفة سكرتيرة فى إحدى شركات السياحة، وقد سبق لها الزواج من زميل لها فى الجامعة إلا إنه لم يستمر كثيرا، واكتشفت أنها تعرف عنى الكثير، فهى تعرف ليلى وجيهان وحتى ابنتى سلاف، مما أصابنى بالحيرة وجعلنى أفكر فى ذلك بعد ما استودعتها تحت باب البناية التى أسكن بها بعد ما أوصلتنى واتفقنا على المقابلة مرة أخرى.

هل ترعرعت تلك الفتاة فى إحدى اللوحات؟

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

- (١١) -

حبيبى فاروق، أعلم أنك تحبنى على الرغم من التوتر الذى ساد علاقتنا. وأعلم أنك قادر على الصمود بدونى. كن قويا يا عزيزى كما عهدتك دائما ... إلى اللقاء.

جيهان

نفر الدم فى عروقى وارتعشت أصابعى، وأنا أقرأ رسالة جيهان التى بعثت بها لى على الهاتف.

كانت الساعة تشير نحو الثانية عشرة والنصف عندما صعدت سلالم البناية التى تسكن فيها جيهان ودسست المفتاح فى فوهة الباب، وأدرته بسرعة لأتجمد برهة من الزمن وأنا أتأمل الغرفة التى بها جيهان، كانت غرفة عارية وملابس نوم مهملة وفتاة ذات شعر أسود ملقاة على الأرض بجوارها الهاتف :

- جيهان ... جيهان ... ماذا حدث يا حبيبتى؟ ماذا فعلتى؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ارتميت عليها، ضممتها إلى حضنى وأنا أردد اسمها، وما أن رفعتها إلى صدرى حتى وجدت شريطا من الحبوب فارغا، مسحت على شعرها وقد تصبب العرق من كل أجزاء جسدى وأنا أردد :

– يا لكِ من مجنونة ... ماذا فعلتى؟ جيهان أجيبى؟

أمسكت هاتفها بيدى المرتعشة واتصلت بالإسعاف.

– لا تخافى ... تماسكى ... سوف أنقلك من هنا ... لكن لماذا؟ أخبرينى .. أنتِ مجنونة، هل تريدين تحطيمى؟

حملتها وخرجت بها إلى الشارع أنتظر سيارة الإسعاف.

– في المرة القادمة سأتركك تموتين ... أفهمتى؟

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بعد ساعة كانت جيهان راقدة فى إحدى الغرف الخاصة بعد ما خرجت من غرفة العمليات وقد مالت بوجهها تجاه الباب لتصطدم العيون ببعض، كان يبدو عليها الحزن والإنهاك .

الطبيب : لا داعى لإرهاقها، تستطيع أن تعود بها إلى المنزل بعد ساعتين.

جلست بجوارها وقد بدا عليا التأثر الشديد، لقد حاولت الانتحار وأعلم أنها غلطتى :

-جيهان ... حمد لله على السلامة.

لم تنظر نحوى وأنا أحدثها ... أمسكت يدها ثم قبلتها :

– جيهان ... لما فعلتى هذا؟

حركت رأسها الي الاتجاه الاخر لتخفى وجهها وتبدأ فى بكاء صامت.

*** * * * ***

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عدت إلى البيت فى تمام الرابعة صباحا بعد ما أوصلت جيهان إلى منزلها واطمأننت عليها.

استلقيت على السرير واضعا يدى تحت رأسى، بعينين مفتوحتين تحدقان فى السقف أسترجع أحداث هذا اليوم الغريب الذى بدأ بفرحة وانتهى بدمعة. ظللت هكذا حتى أخذنى النوم.

كانت هى ... جيهان ... تجلس على حافة بحيرة صغيرة، تغوص أطراف أقدامها فى الماء بينما وجهها مختبئ خلف يديها يخفى دموعها، بينما كنت أنظر إليها من الضفة الأخرى، غير مدرك ما الذى علىَّ فعله.

استيقظت على صوت الرسائل الواردة إلى هاتفى :

- أبى ... لماذا لم تأتِ هذا الصباح لكى توصلنى إلى المدرسة؟ لقد انتظرتك كثيرا. أتمنى أن تكون بخير ... سلاف.

- أستاذ فاروق لا تنسى موعدنا. أنا أنتظرك فى البيت. رجاء لا تتأخر ... جومانة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– أستاذ فاروق فى الرابعة من مساء اليوم موعدك مع الدكتور مجدى، رجاء لا تتأخر.

كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة فلم يكن أمامى الكثير حتى أتناول الإفطار، فاكتفيت بكوب من الشاى الأخضر. اتجهت إلى خزانة ملابسى وارتديت قميصا أبيض بياقة ينتهى داخل بنطال أسود من القماش وغاصت قدمى داخل حذائى الأسود المدبب.

*** * * * ***

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– (١٢) –

فى الرابعة وخمس دقائق كنت ممددا على المقعد الطويل فى عيادة الطبيب النفسى وثمة موسيقى خفيفة تتردد حولى وإضاءة خافتة تنبعث فى المكان والطبيب يجلس بجوارى يسجل كل ما أقوله فى دفتره الصغير ناظرا فى وجهى منتبها لتعبيراتى :

– أعتقد أن هذا ما حدث ... أو ...

– أكمل ... لماذا توقفت؟

– لم يعد عندى ما أقوله.

– كيف؟ أنت لديك الكثير.

– من قال ذلك؟

– أنت.

– أنا لم أقل شيئا، أتشكك فى قدراتى العقلية.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– لا ... فقط شعرت بذلك.

– شعورك ليس صادق.

– من قال ذلك؟ أنا أشعر بك ... فساعدنى حتى أستطيع مساعدتك.

– ليس عندى شىء أقوله الآن.

– فى مثل حالتك يحاول المريض أن يهرب من الواقع ومن مواجهة الحقيقة. أعلم أنك شخص قوى وعندك القدرة على الخروج من هذه الحالة وأعلم أنك هنا لكى أساعدك فيجب أن تساعدنى.

– صدقنى ليس عندى ما أقوله.

– ليس هناك مشكلة. نحدد ميعادا آخر.

*** * * * ***

قلب هذا الطبيب المواجع علىَّ وغيّر مزاجى تماما بكلامه الغير مسئول. لماذا يريد أن ينبش فى الماضى دائما؟ لكنه محق فى كل كلامه، لقد ذهبت

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إليه طالبا المساعدة وهو يقوم بواجبه على أكمل وجه، أنا الذى أرفض مساعدته. كم أنا شخصية عنيدة لا تعرف ماذا تريد.

أفقت من نوبة شرودى فوجدت نفسى واقفا أمام إعلان ضخم موضوع على وجهة إحدى الصيدليات "هنا تباع الفياجرا".

* * * * *

هناك الكثير من الكتب واللوحات الموضوعة على الحائط الأبيض. هذا أول شىء لفت نظرى عندما استقبلتنى جومانة داخل شقتها وقادتنى إلى الأنتريه حيث جلسنا :

– ماذا تود أن تشرب؟

– أى شىء ... مثلما تحبين.

قامت من مجلسها واتجهت نحو البار تعد كأسين فلاحظت فستانها القصير الرمادى المشجر بالورود من نفس اللون دون أكمام والصدر مستدير تحليه شراشيب طويلة تبدأ من فتحة الرقبة المستديرة حتى أسفل الوسط، أما

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

شعرها فكان مدرج وهـو الشعر بين بين، فبعض خصلاته طويلة والبعض الآخر طويل محيط بالوجه، أتت تحمل كأسين فتناولت واحدا :

– أتعرفين ماذا أريد أن أفعل الآن؟

– ماذا؟

– أريد أن أرسمك، أرسمك وأنتِ هكذا سعيدة، فوجهك من الوجوه النادرة التى تشعرنى بالسعادة. أتحبين فان جوخ؟

– لماذا تسأل؟

– لاحظت أن معظم لوحاته منتشرة فى أنحاء الشقة.

– نعم .. فان جوخ مثلى الأعلى وقصة حياه مثيرة للشفقة والألم.

– لكنه شخصية متقلبة و ...

أشرت بأصابعى إلى ناحيتين من رأسى موضحا أنه كان مجنونا.

– لكنه رائع فى التعبير عن ما بداخله. أنا أستشعر ذلك من لوحاته.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– تعرفين أنه قطع أذنه اليسرى بواسطة شفرة حلاقة وقدمها هدية لحبيبته.

منتهى الجنون.

– بل قل منتهى التعبير عن الحب.

– هناك الكثير من الرجال لا يستطيعون التعبير عن حبهم على الرغم من أنهم أكثر رومانسية من آخرين.

– أتفق معك. لكننى لا أحب الرجل الخجول.

– هذا ليس خجلا ... إنه وقار وهيبة. الرجل اعتاد طوال عمره أن يكون هو القوى. هو من يدافع وينتصر. لكن فى الحب الرجل يكون ضعيفا، ضعيفا جدا وهذا ما لا يقبله الكثير من الرجال. لذلك أحيانا يصعب عليه أن يعبر عن حبه حتى لا يقلل من شأنه.

– ليس مبررا مقنعا. المرأة لن تذهب إلى حبيبها وتقول له أحبك، هو من يجب أن يبادرها.

– أرى أنك أخذتى الموضوع بعصبية. أكملى كأسك، أنا لم آتى إلى هنا من أجل النقاش بل من أجل الاستمتاع .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– نعم علينا أن نستمتع.

فرغت الكؤوس. فقامت جومانة وأحضرت الزجاجة وسكبت لى ولها وقد بدأ أثر الخمر ينتشر فى عقلى.

– أتعرفين؟

– أعرف ماذا؟

– أنتِ شديدة الإثارة.

– كلا ... أنا لست كذلك.

– أنتِ منحرفة بأشكال متعددة ... مثيرة جنسيا بشكل غير عادى.

– ماذا تقصد؟

– أنتِ خارقة فى السرير ... تملكين السعادة فى كل جزء من جسدك.

– .....

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أمسكت بذراعيها واقتربت من أنفها واضعا قبلات عدة ابتداء من جبهتها نزولا إلى شفتيها :

– لا أنكر أننى معجبة بك، لكن هل تحبنى؟

– الإعجاب بداية الحب.

– أعرف أنك عرفتنى من فترة قصيرة، لكننى أعرفك من زمن طويل.

لففت زراعى حول رقبتها وقبلتها، أقبل أجزاء من عنقها وهى تقبل مواضع من رأسى إلى أن تتقابل الشفاه فنغوص فى قبلة حارة طويلة لم تعنى لى سوى الاستسلام التام للذة. رفعتها مفرودة على زراعى إلى غرفة نومها.

* * * * *

بعد نصف ساعة أسندت ظهرى إلى السرير بينما جومانة مستلقية برأسها على صدرى صامتة يهبط صدرها ويعلو وأطراف أناملها تداعب بطنى :

– لقد أزحتى عنى مشاكل كثيرة كنت أفكر بها. أنتِ رائعة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رفعت عينيها مبتسمة من حديثى، ثم أمسكت بيدى وقبلتها من بطنها.

– أنت كذلك آنستنى أشياء كثيرة.

– أتعرفين ... أنتِ تثيرى إعجابى، لا أعرف كيف توفقين بين الرسم والسياحة؟

– ببساطة الرسم لى هواية ليس أكثر أما السياحة فهى مصدر قوتى.

– لكنك موهوبة فعلا، من الممكن أن تكونى فنانة كبيرة ذات صيت عالمى.

– لا أهتم بذلك ولا أنظر إليه.

– إذن ... لماذا قمتى بعرض لوحاتك؟

– لكى أراك.

– هههههه ... كان يمكنك أن تتصلى بى أو تبعثى لى برسالة على الإيميل، ولا تغرمين كل هذه المصاريف.

– عندما تفعل شيئا جيدا بعد ما بذلت به مجهودا خرافيا تشعر فى لحظة ما أنك فى حاجة إلى كلمة شكر، هل شعرت بهذا الإحساس من قبل؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وكأنى أتجاهل سؤالها، مددت يدى نحو بنطالى الملقى بإهمال على الأرض بجوار السرير وأخرجت علبة سجائرى :

– أتريدين سيجارة؟

– ولما لا ... اعطنى واحدة ... لكن أشعلها بنفسك.

نفذت رغبتها وأشعلت سيجارة ونفثت منها ثم وضعتها بين شفتيها. ثم أشعلت واحدة أخرى لى :

– أتعرف، حاولت كثيرا التغلب على تلك الرغبة فى التدخين والتلذذ بنفث الدخان فى الهواء عقب ممارسة الحب.

– أعتقد أن الجميع يفعل ذلك.

– عندما كنت فى سن صغيرة كنت أسرق السجائر من علبة أبى وهو نائم وأنفثها فى غرفتى فى الظلام الدامث. كانت لحظات مسروقة جميلة جدا. أتعرف كان أبى يضربنى على وجهى إذا لم أرتجف تجاه ذكر الله.

قالت جملتها الأخير بنبرة يائسة، وكأنها تتذكر الآلام، فحاولت تغيير الأجواء.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– ألا تذهبين إلى العمل؟

– أذهب، لكننى اليوم بقيت لكى أنتظرك.

– لماذا تعطلين نفسك من أجلى؟

– لا داعى لذلك، أنت عندى أهم من أى شىء.

– ما طبيعة عملك؟

– أتولى العلاقات العامة، تنظيم برامج الأفواج، مواعيد وصول ومغادرة السياح، مشاكلهم، أى شىء يقف عائقا أمامهم.

– هههههه ... أنتِ تبذلين جهدا خارقا فى العمل.

– ألا تود السفر إلى أى مكان داخل مصر.

– امممممم ... لا أدرى، لكننى أخطط إلى قضاء الصيف فى مارينا. هل ذهبتى إلى هناك من قبل؟

– كثيرا ... أعتقد أننى أستطيع مساعدتك.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– كيف؟

– أستطيع توفير لك محل الإقامة، كم شخصا سيكون معك؟

– اثنين.

– اثنين !

– نعم ... جيهان وابنتى سلاف، لقد قصرت فى حقهم كثيرا، أشعر بالذنب نحوهم، خاصة جيهان التى حاولت الانتحار بسببى.

– الانتحار !! متى حدث ذلك؟

قالتها وقد بدا الاهتمام عليها.

– البارحة، كان موقفا صعبا، صعب للغاية.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

- (١٣) -

لتأنيب الضمير سريان يجرى فى الدم فيحول الجسد إلى مادة هالكة لا تقوى على أى شىء.

على ضفاف النيل وجدت نفسى فى هجعة الليل، بدأ حوار ضميرى الساخط على أفعالى، حينما يتحدث إليك الضمير فغالبا تستمع إلى عواصف رعدية وليس إلى نغمات موسيقية ... لم أستطع الذهاب إلى المنزل قبل أن أطمئن على جيهان، فقد سبب حديثى مع جومانة عنها ثورة داخلى، لا أعرف كيف تركتها حتى كادت أن ترحل عنى، ترحل إلى الأبد. ألا تدرك أننى لا أستطيع تحمل ذلك.

* * * * *

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عندما فتحت جيهان باب شقتها لم أدرى بنفسى إلا بين أحضانها بينما شفتايَ تلتهم شفتيها وهى تبادلنى نفس الإحساس فى حنان بالغ. ابتعدت عنى قليلا وهى تنظر إلى عينى وأنا أنظر إلى عينيها ثم قلت :

- لقد أصبحتى أحسن كثيرا من البارحة.
- الحمد لله ... لقد أزعجتك كثيرا.
- لا تقولى ذلك. المهم أنك ما زلتى أمامى.
- أعتذر عن كل ما حدث، لقد كنت ....

وقبل أن تهم بإكمال حديثها كانت شفتايَ تسكتها وتمنعها من الحديث لأعبر لها عن أن هذا الحديث لا قيمة له طالما أننا مع بعضنا البعض.

* * * * *

كنت أستلقى بجوارها عندما أسندت جيهان ظهرها إلى السرير وفى يدها سيجارة مشتعلة ونفثت منها بقوة، فركت عينى، ثم قالت :

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– لا أعرف لماذا استغرقت كل هذا الوقت حتى أنتشى.

– لقد كنتى رائعة، لقد بدأت أستعيد الاحساس بكِ.

انقلبت على جنبها الأيمن مستديرة نحوى ثم قالت :

–مارسة الحب معك تشعرنى بالأمان.

– ومعكى تشعرنى بالدفء.

أدارت وجهها بعيدا عنى وكأنها تخشى أن تلتقى أعيننا ثم قالت :

– فاروق ... أنا آسفة عن كل شيء سببته لك، لقد كنت أنانية.

– جيهان ... لقد انتهى الأمر، لا داعى أن نناقشه، لقد انتهى الأمر تماما.

جذبتها إلى صدرى واضعا وجهها فوق كتفى ثم قلت :

– دعكِ من هذا الحديث، لقد أحضرت لكِ مفاجأة.

– بجد ... ما هى؟

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

* * * * *

أخبرت جيهان بخطتى لقضاء الصيف أنا وهى وابنتى سلاف فى مارينا وبدت سعادة غامرة على وجهها كأنها كانت تنتظر هذه الرحلة بفارغ الصبر حتى تتناسى ما حدث لها.

عدت إلى البيت بعد الظهر، كان ظهر يوم الجمعة، هبت علىَّ فارحة عارمة عندما تذكرت أن هذا اليوم هو يوم ميلاد ابنتى سلاف. بعثت إليها برسالة على الهاتف أخبرها فيها بأن تنتظرنى بعد العصر سوف آتى إليها.

* * * * *

تتراءى المدينة فى أروع حالاتها، ها هى الشمس جميلة ذهبية تبدأ فى المغيب، تبدو كنيران استقرت فى باطن السماء ثم هدأت، تضيف بريقا آخر إلى هذه السماء الزرقاء، تضيف جاذبية غير معروفة السبب.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تتحرك عينى إلى أسفل ببطء مصورة تبحث عن نقاط الجمال لتظهر المدينة التى نعيش بداخلها. كانت مزيجا متلألئا من أنابيب الاختبار الصغيرة تسير بسرعة ملحوظة والأبنية المربعة الصغيرة جدا والمتكتلة هنا وهناك وكأنها وضعت على سطح خريطة جغرافية، أما الظلال فكانت متساوية مع الأرصفة والتى تشير إلى وجود المحلات والمطاعم.

لم يكن ما سبق سوى ما شهدته وأنا على قمة برج الجزيرة ومعى ابنتى سلاف التى اقترحت فكرة الذهاب إلى هناك. فكانت على صواب.

تناولنا الغداء فى إحدى المطاعم المطلة على النيل ثم بعد ذلك اتجهنا إلى السينما وجلسنا نشاهد فيلما من أفلام ديزنى والفشار يندفع إلى فمنا ويتساقط منا غفوا ونحن غير قادرين أن نمسك أنفسنا من شدة الضحك. كانت المرة الأولى التى أشاهد فيها فيلما بعد بداية، لا أعرف لما لم أتكدر من ذلك ولا أعرف لما لم ينتابنى إحساس الحزن لأننى أشاهد فيلما بعد بداية بعشرة دقائق.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كنت سعيدا جدا بهذه الفسحة التى أعادتنى إلى الحياة مرة أخرى جعلتنى أفكر فيها بنظرة طفلة لا تنتظر منها شيئا. كيف استطاعت تلك الصغيرة أن تغير من طابع أبيها بهذه السرعة؟

يا ليتكِ كنتِ فعلتى ذلك من زمان.

* * * * *

ظللت أسترجع هذه الفسحة الرائعة مع ابنتى وأنا جالس أمام لوحتى الألف أحاول إنهائها. لقد أعطت لى ابنتى شحنة هائلة. ها هى اللوحة قد اقتربت من ميلادها السعيد لتجاور ٩٩٩ لوحة قد سبقتها ولأنهى حياتى بها. بعد نصف ساعة من الزمن كنت أكتب عليها تاريخ الميلاد.

قمت من مقعدى أبحث عن ورقة جرائد أغطى بها اللوحة حتى لا تراها جيهان عندما تعود إلى البيت إلى أن أحضر الطريقة المناسبة لكى أفاجئها بها.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كانت جريدة موضوعة بإهمال خلف أحد كراسى الأنتريه، كان طرفها ظاهرا بوضوح، لا أتذكر أننى قرأتها من قبل، اجتذبتها وعريتها من صفحتها الأولى والأخيرة الممسكة بها، ثم ذهبت إلى لوحتى أطوقها بها بكل اهتمام وسعادة فجذب عينى مانشت الصفحة الأولى :

"نجاة الفنان التشكيلى المعروف فاروق عزام من حادث تصادم، ومصرع زوجته وابنته".

صارت رعشة تسرى فى جسدى وأنا أقرأ الخبر الذى كان ملخصه : أننى تعرضت إلى حادثة وأنا ذاهب إلى قضاء الصيف فى مارينا وأن زوجتى جيهان وسلاف قد ماتا.

نظرت إلى تاريخ النشر فكان من عام مضى فسرعان ما ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهى وأنا أتذكر أننى لم أسافر إلى مارينا بعد وأننى أودعت ابنتى أمام البيت قبل قليل أما جيهان فقد كنت أحدثها فى الهاتف من ساعة تقريبا. كيف وصل بهم الأمر إلى فبركة كل هذا؟ لكن، كيف علموا أننى أنوى قضاء الصيف فى مارينا. لففت اللوحة ووضعتها وسط اللوحات المتراصة فوق بعضها، وأخذت أسخر مما قرأت، لفت انتباهى عدة كتب متراصة فوق

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بعضها موضوعة بجوار اللوحات، فأزحت عنها الغبار بظهر يدى ورحت أستكشفها، كانت كتبا فى التصوف والشعر وروايات متنوعة لكتاب شباب، لفت نظرى هذا العنوان "لحظات يأس"، ليس العنوان فقط بل والغلاف أيضا الذى ما هو إلا صورة مصغرة من لوحتى الألف وعليه توقيعى، حتى الإهداء ... "إلى زوجى العزيز الفنان فاروق عزام ... ليلى"

قرع جرس الباب فكانت ليلى ترتدى فستانا أسودا وقد غطت رأسها بطرحة من نفس اللون ممسكة بحقيبة ضخمة، هممت بسؤالها :

– ما الذى أتى بكِ إلى هنا؟ ألا تعرفين أننى متزوج وأحب زوجتى؟

– فاروق ... ماذا بك؟ أنا زوجتك، أنسيت بهذه السرعة؟

– زوجتى !! كيف !! لقد طلقتك، ألا تذكرين هذا؟

تخطت بقدميها عتبة الشقة وأغلقت الباب ثم قالت :

– نعم أذكر. لكنى زوجتك من أربعة أشهر فقط، لقد عدنا إلى بعض.

– وجيهان.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

– رحمها الله.

– ماذا تقولين !! أتصدقين ما نُشر فى هذه الجريدة؟ أنا فقط من كان فى المشفى، أنسيتى، حدث هذا العام الماضى، فقدت يدى اليمنى وركبت بدلا منها واحدة صناعية وأنها تعمل بنجاح.

قلتها وأنا أشمر عن ساقى الأيمن حتى تتراءى إلى ليلى.

– فاروق ... تماسك، تماسك حبيبى، لقد مر عام، أعلم أن الدرس كان قاسيا، قاسيا جدا لا يتحمله أحد.

وضمتنى إلى حضنها ثم راحت فى نوبة بكاء حاد بينما كنت أحدق فى صورة ابنتى سلاف وجيهان المعلقتان أمامى وقد طوق أطراف الصورتين شريط أسود غير مدرك لما حدث.

تمت

أكتوبر ٢٠٠٩

ابراهيم المحلاوي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com